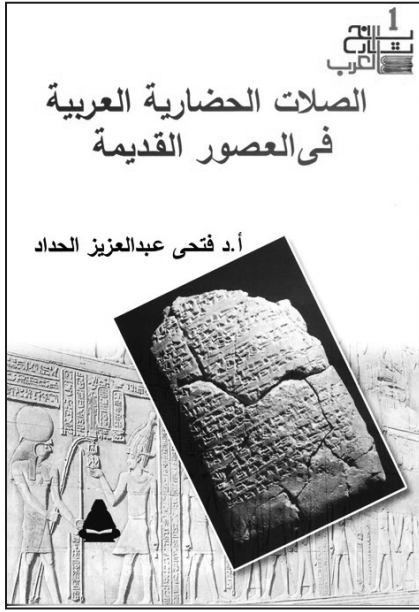


عرض كتاب

الصلات الحضارية العربية في العصور القديمة

عصام السعيد



الصلات الحضارية العربية في العصور القديمة

اسم الكتاب

تأليف

فتحي عبد العزيز الحداد

الناشر

الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة

سنة النشر

٢٠١٤

رقم التصنيف الدولي

٩٧٨٩٧٧٤٤٨٩٥١٨، ٩٧٧٤٤٨٩٥١٩

عدد الصفحات

٢٩٣ صفحة

تعاملت مع حضارات وادي الإندوس، فاندجت شبه الجزيرة العربية وجوارها العربي القديم مع الهند في علاقات سلمية كبيرة وربطت بينها وبين دول من الشرق الأدنى القديم. وكان للتجارة العربية القديمة دورٌ كبيرٌ في تسويق السلع الهندية في أنحاء العالم القديم إلى جانب السلع المحلية التي اشتهرت بها مناطق شبه الجزيرة العربية، لتقوم بذلك بدور كبير في إرساء نظم التبادل التجاري بينها وبين دول الشرق الأدنى القديم. وكانت هذه التجارة أحد أسباب التوسع في الاتصال بين الدول، بل كانت سبباً في إنشاء الكثير من الطرق التجارية البرية والبحرية لترتبط بين كافة أرجاء الشرق الأدنى في الداخل. واتسعت حركة تجارة القوافل البينية في منطقة الشرق الأدنى القديم، بل اتسع المدى لتعامل دول من الشرق الأدنى مع دول أخرى سلمياً أحياناً، وعسكرياً

اتسعت العلاقات العربية في العصور القديمة بشكل ربما لا يتخيله من لم يتعمق في القراءة عن الحضارات القديمة التي ازدهرت في الأراضي العربية. فكانت هناك العلاقات التي نشطت بين دول المنطقة في عصورها القديمة؛ ثم العلاقات التي اتسعت لتتخطى حدود المنطقة العربية. وسجلت النصوص والآثار أسرار هذه العلاقات التي كان لها آثار اقتصادية وسياسية وثقافية كثيرة. وفي هذا الإطار توسّطت شبه الجزيرة العربية من خلال موقعها المتميز معظم حضارات الشرق الأدنى القديم، فكانت فرصة التواصل بين ممالكها ومناطقها الحضارية مع محيطها العربي القديم كبيرة. كما كان لنشاطها البحري الكبير عامل قوي في علاقاتها بالشرق الإفريقي من ناحية وبالشرق الأقصى من ناحية أخرى فربطت بذلك بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى.

يتكون الكتاب من أربعة فصول؛ يتحدث الفصل الأول عن العالم القديم في نصوص شبه الجزيرة العربية، ويتحدث الثاني عن الدبلوماسية في نصوص شبه الجزيرة العربية القديمة، فيما يتناول الثالث التواصل الحضاري العربي بالشرق الأقصى القديم، أما الرابع فيتناول آثار التواصل الحضاري العربي القديم.

ركز المؤلف في هذا الكتاب على العلاقات المتبادلة بين الشرق العربي الإفريقي القديم ودول وممالك شبه الجزيرة العربية القديمة، ثم دور شبه الجزيرة في الربط بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى؛ ونظرًا لأن منطقة شبه الجزيرة العربية هي الرابط الأساسي في العلاقات السالفة الذكر، فقد اهتم المؤلف في التمهيد بالمرتكزات الحضارية في العلاقات العربية القديمة.

ويبرز الكتاب تمتع شبه الجزيرة العربية بموقع متميز - تلاقت من خلاله في الغرب بحضارات شرق إفريقيا في مصر والحبشة - كان له أثر كبير في فرص العبور والتواصل والتعامل الذي خضع لدوافع كثيرة لعل أهمها وحدة الأصول وتحقيق المصالح الاقتصادية والأهداف السياسية والدينية. كما كان لقدم الاتصال بين حضارات شبه الجزيرة العربية وحضارة وادي الإندوس أثر كبير في التعامل التجاري وكذلك الربط بين الشرق الأقصى ودول الشرق الأدنى القديم.

تركت تلك الصلات تأثيرات واسعة في الفكر والفنون، بالمناطق الحضارية في كلٍّ من شبه الجزيرة العربية، وشرق إفريقيا؛ حيث تمثلت تأثيرات شرق إفريقيا في شبه الجزيرة العربية في ظهور التأثيرات المصرية بوضوح في مناطق الغرب والجنوب، وظهرت تأثيرات شبه الجزيرة العربية في شرق إفريقيا متمثلة في التأثيرات اليمنية في فنون وثقافة الحبشة.

التقت جماعات مصرية وجماعات من أهل شبه الجزيرة العربية في مواقع وأزمان مختلفة، فقد جمعت مناطق تعددين النحاس بين جماعات من مدين بالمصريين،

أحيانًا أخرى. وكان هذا الازدهار الاقتصادي في المنطقة العربية القديمة هو الباعث الأول لأطماع اليونان والرومان في السيطرة على مصادر إنتاج السلع التجارية المهمة التي اشتهرت بها تجارة العرب القديمة.

قدمت الكشف الأثرية شواهد كثيرة تدل على قدم العلاقات بين دول وممالك شبه الجزيرة العربية بين بعضها وبعض وأيضًا شواهد أخرى على علاقاتها بدول العالم القديم المعاصرة لها، وقد وردت هذه الأسماء في نقوش من داخل اليمن، وأيضًا في نقوش اللغة اليمنية القديمة التي انتشرت خارج حدود اليمن؛ مما جعل هذه الأسماء تأخذ انتشارًا، وتنوعًا بمختلف الانتماءات. فمن هذه الأسماء ما ينتمي للحضارة الهندية في أقصى الشرق، وما ينتمي منها لحضارات بلاد النهرين، وما ينتمي منها للحضارة المصرية، وما ينتمي منها للحضارة اليونانية، وما ينتمي منها لبلاد فارس، وما ينتمي منها لأنحاء متفرقة في شمال ووسط شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي القديم. وقد أكدت كتابات الرحالة والمؤرخين القدامى على ذكر بعض هذه الحضارات التي اتصلت بدول شبه الجزيرة العربية القديمة. ودلت بعض الآثار ذات التأثيرات الخارجية، وبعض الآثار المنقولة - التي عُثر عليها في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية - على تلك العلاقات، وقد ارتبط ذكر أسماء الأعلام، والدول والأماكن، والمعابدات، والشعوب والقبائل الواردة في النقوش اليمنية القديمة بأحداث تاريخية مهمة. وكان من فوائد هذه العلاقات على الصعيد الاقتصادي تشريع القوانين التي تنظم الحياة الاقتصادية، وشئونها، وخلق نظم لتمويل الرحلات التجارية، علاوة على الفوائد التي تحققت على الصعيد الثقافي؛ حيث تركت تلك الصلات الحضارية تأثيرات واسعة في الفكر والفنون، بالمناطق الحضارية في كلٍّ من شبه الجزيرة العربية، والدول التي تواصلت معها عبر العصور القديمة.

قبل الميلاد، واحتلت مدينتا العلا (ديدان) والحجر (مدائن صالح) موقعاً جغرافياً متميزاً من الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وقد قامت بدور فعال في التقاء المراكز الحضارية القديمة. ونتيجة لهذا الالتقاء والتواصل ظهرت التأثيرات المصرية في عدد من تماثيل لحيان كالتماثيل التي عُثر عليها في العلا، التي تأثرت بهيئة التماثيل المصرية مع احتفاظها بخصوصيات لحانية واضحة ظهرت في أغطية الرأس وملامح الوجوه؛ مما يدل على أن الفنانين الذين نفذوها كانوا فنانين متدربين وأصحاب خبرة، فقد جمعوا بين الأسلوب المحلي والتأثير المصري.

أما التواصل الحضاري بين مصر وجنوب شبه الجزيرة العربية فقد اعتمد على السلع التجارية التي سيطر عرب جنوب شبه الجزيرة العربية على تجارتها، سواء تلك التي جلبوها من خارج أراضيهم أو أنتجتها بلادهم. وقد عُثر على عدد كبير من النقوش والمقابر المعينية شرق (الخريبة) بالعلا (ديدان)، وامتد نشاط المعينيين إلى مصر؛ حيث عُثر فيها على كتابات معينية، تثبت أنه كانت هناك حركة تجارة نشطة في توريد بعض المنتجات العربية إلى مصر، ونتيجة طبيعية لتلك العلاقات المصرية اليمنية القديمة، عُثر في جنوب الجزيرة العربية على عدد من التماثيل المنحوتة، طبقاً لأساليب الفن المصري القديم. وعلاوة على التماثيل ظهرت أيضاً تأثيرات مختارة في الفنون الصغرى كالأختام والتمايم والمشغولات المعدنية. فقد عُثر على الكثير من الأختام في جنوب شبه الجزيرة العربية، صنعت من مواد مختلفة. وتحمل بعض الأختام تأثيرات خارجية، كان من بينها أختام تقلد الجعارين المصرية. يضاف إلى ذلك أنه قد عُثر في مناطق متفرقة من اليمن على عدد من الأختام والقطع الأثرية المصرية الأصل، كما عُثر على بعض الأدوات المصنوعة من البرونز في اليمن القديم، تحمل بعض الأفكار في تصميمها تشابه مع مثيلاتها في الآثار المصرية.

وقد كانوا يشتركون مع المصريين في العبادة وبالتحديد في تقديس الإلهة حتحور، وهو ما له مثيل في منطقة سراييط الحادام في سيناء؛ فهناك عبدت القبائل السامية الإلهة حتحور تحت اسمها السامي (بعلت). وكان من آثار هذا الالتقاء الحضاري العثور على أعداد كبيرة من الأواني الفخارية الملونة، ذات التأثيرات المتبادلة بين الجانبين وظهور نوع بسيط، عكس تداخل الصنعتين؛ وهو ما يعني تبادل الخبرات بين المصريين وأهل مدين في صناعة الفخار في هذه المنطقة التي جمعت بينهم في المعيشة؛ كما دلت الصلات بين مصر والأنباط على مراحل مختلفة من التعامل بين الجانبين؛ حيث دخلت العلاقات المصرية مع الأنباط في بداية مراحلها بعمليات قرصنة وحملات عسكرية، وكان هدف مصر هو تأمين تجارة البخور القادم من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى مصر. وقد دلت النقوش النبطية المنتشرة على صخور صحراء مصر الشرقية على وجود الأنباط واستمرار نشاطهم حتى أواخر القرن الرابع الميلادي، وقد كانت التعاملات التجارية الواسعة للأنباط باعثاً على استفادتهم من فنون الحضارات التي تعاملوا معها؛ لذا ظهرت ملامح التأثيرات المختلفة في فنون الأنباط، وكانت الخزنة من أهم آثار الأنباط وتأثرت واجهتها بفنون العمارة المصرية؛ حيث ظهر فيها الكورنيش المصري، وتكرر هذا التأثير في واجهات مقابر الأنباط في مدائن صالح.

لعبت تيماء دوراً حيوياً في شبكة التجارة التي كانت تربط شبه الجزيرة العربية بالمراكز الكبرى لقوى الشرق الأدنى القديم، وكانت بمثابة محور الشبكة المترابطة، التي تربط جنوب شبه الجزيرة ببابل، ومصر، وسوريا. وكان من الطبيعي أن تترك علاقات تيماء بالحضارات الكبيرة التي أحاطت بها أثراً واضحاً في بعض آثارها. فظهرت فيها بعض التأثيرات المصرية في موضوعات لوحاتها وموزها المصاحبة.

ازدهرت لحيان في العلا ومدائن صالح، في الفترة من بداية القرن السادس قبل الميلاد، حتى نهاية القرن الثاني

هذا، وقد امتد أثر التواصل الحضاري إلى المناطق الحضارية في شرق شبه الجزيرة العربية، تلك المناطق التي لعبت دوراً بارزاً منذ الألف الثالث قبل الميلاد، حتى مجيء الإسكندر الأكبر إلى المنطقة. وقد كان من الطبيعي أن تترك تلك العلاقات المتشعبة للمناطق الحضارية في شرق شبه الجزيرة العربية آثاراً واسعة في عدد من جوانبها الحضارية، وكان من جوانب تلك التأثيرات أن عُثر على أختام تقلد الجعارين المصرية في دلمون، وفي عدد من المواقع الأثرية بسلطنة عُمان، واستخرجت من بين القبور التي عُثر عليها في الظهران أختام، تشير إلى اتصالات واضحة مع مصر، حيث تحتفظ بتأثيرات مصرية.

وضح أثر التواصل الحضاري في جنوب شرق إفريقيا منذ بداية تاريخ الحبشة القديم؛ حيث يذهب المؤرخون إلى أن الأحباش هم جزء من السبئيين الذين عرفوا بهجراتهم المتكررة، التي عبرت البحر الأحمر من السواحل الغربية لجنوب الجزيرة العربية إلى السواحل الشرقية لإفريقيا. وقد كان الاتصال بين الساحل الغربي لجنوب شبه الجزيرة العربية، والساحل الإفريقي المقابل اتصالاً حتمياً فرضه التقارب بين الشاطئين العربي والإفريقي. وقد أثبتت الآثار بما لا يدع مجالاً للشك، الروابط الوثيقة التي كانت تربط بناة مملكة أكسوم بالحضارة اليمنية؛ فكانت أقدم النقوش التي عُثر عليها حتى الآن في ذلك البر الإفريقي نقوشاً سبئية، وتوافقت المظاهر الحضارية التي وجدت في البر الإفريقي، مع المظاهر الحضارية عند اليمنيين، وقد كانت وحدة الأصول سبباً في وجود الكثير من النظائر الدينية، واللغوية، والأثرية، في اليمن والحبشة، فما لبث السكان بعد اختلاطهم بالمهاجرين الجدد، أن كتبوا لغتهم (الجعزية ولهجاتها) بحروف خط المسند مع بعض التغييرات

البسيطة. ووفقوا بين الثقافة الوافدة والثقافة الكائنة بهذه الأرض. وعُثر في الحبشة على نصوص حملت أسماء آلهة يمنية مثل (المقه، وعثر)، وتأثر معبد (يحا) البيضاء بالعباد السبئية، وقد حملت الآثار الحبشية الكثير من الرموز الدينية، التي حملتها مثيلاتها في اليمن القديم، مثل رسوم الوعل، والرموز التي حملتها المباخر كالهلال والقرص المعتاد تمثيلهما على واجهات المباخر العربية الجنوبية، وكذلك الزخارف التي تُنفذ دوماً على جانبي القرص والهلال، والتي تُمثل تخطيط المعبد اليمني القديم؛ كما حملت الفنون الحبشية ملامح كثيرة، تدل على التأثير اليمني في كثير من موضوعاتها، وزخارفها، ورموزها الدينية، وأدوات الاستخدام اليومي. وكانت الرسوم الصخرية أحد هذه الفنون المبكرة التي حملت تأثيراً يمينياً ظهر في موضوعاتها مثل رسوم الوعل، وصور الثور، وتأثرت التماثيل الحبشية في هيئاتها وزخارف ثيابها، وقواعدها، وطريقة وضع النصوص المصاحبة لها بمثيلاتها في جنوب شبه الجزيرة العربية، وشكلت المباخر الحجرية أحد أوجه التأثير والتشابه بين اليمن والحبشة؛ كما تتشابه مجموعة من شواهد القبور عُثر عليها في الحبشة مع مثيلاتها في جنوب شبه الجزيرة العربية تشابهاً كبيراً. علاوة على تشابه الأختام والقطع البرونزية والاستخدام المتبادل للعمالات في كل من اليمن والحبشة، وعلاوة على هذا امتد التأثير إلى الأدب والأساطير؛ حيث تسلت قصة (ملكة سبأ) إلى الأدب الحبشي، فظهر التداخل بين قصة ملكة سبأ اليمنية و(ماكيدا) ملكة سبأ الحبشية؛ نظراً لوحدة الأصول، وهكذا كان للتواصل بين شرق إفريقيا وغرب شبه الجزيرة العربية أثر كبير في اللغة، والعقائد، والفنون، والآداب.